

البَابُ الْأَوَّلُ

الْخِلاَفَةُ

(المهمّة الوجوديّة للإنسان)

الفصل الأول

الإطار العقدي للخلافة

تمهيد:

يقوم في ذهن الإنسان تساؤل وجودي بصفة فطرية، فما أن يبدأ في التعامل مع البيئة الكونية تعاملاً عقلياً حتى يرد على خاطره سؤال ذو ثلاث نقاط أساسية: مأتى العالم، ومصيره، وحقيقة حركته فيما بين المأتى والمصير.

ولم تكن المذاهب الفلسفية منذ عرف الإنسان الفلسفة إلا محاولات في الأصل للإجابة على هذه الأسئلة إزاء الوجود، بل إن الأساطير والخرافات صيغت إشباعاً لما ورد على خاطر الإنسان من تساؤلات.

وقد جاءت الأديان السماوية منذ بدأ الوحي تجيب في وضوح وقطعية على هذا التساؤل الوجودي الفطري في الإنسان، وجاء يؤكد بعضها بعضاً كلما تناسى الإنسان الجواب أو انحرف في تحمّله، حتى إذا ما انتهى الأمر إلى الوحي الخاتم كانت أول سورة نزلت من القرآن الكريم تضع خلاصة نهائية لتفسير الوجود تركيزاً لما جاء في الوحي من قبل من تفاسير، وإشباعاً أبدياً لما يطرأ على الإنسان من خواطر في هذا الباب.

إن أول آية من سورة العلق جاءت تبين مآتى الوجود حيث قال تعالى: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾، فأصل الموجودات كلها النخلق الإلهي كما يفيد حذف المفعول به في فعل «خلق»، ثم يأتي بعد ذلك بيان لمصير الوجود، حيث يفيد قوله تعالى: ﴿ إن إلى ربك الرجعى ﴾ أن الكون جميعاً مصيره إلى الله يتصرف فيه بالإبقاء والإفناء، وبالثواب والعقاب. وفيما بين هذا المآتى وهذا المصير تسوق القدرة والإرادة الإلهيتان الكون جميعاً فيما ينشأ وما يفنى، وفيما يتحرك وما يسكن على أساس من ناموس إلهي يقوم على العلية، حيث تكون الأشياء أسباباً لبعضها في حركة النشوء والاستحالة والفناء، وهو ما تضمّنه قوله تعالى: ﴿خلق الإنسان من علق﴾، فهذا التعبير القرآني يتضمّن أن القدرة الإلهية هي المسيطرة على حركة الكون بقانون عليّ تكون فيه العلة وهي أصغر الأشياء وأقلها قيمة سبباً للإنسان وهو أعظم الكائنات وأرفعها، وهكذا الأمر فيما يحدث في الكون من أصغر عناصره إلى أعظمها. ✽

إن هذا البيان الإلهي لحقيقة الوجود الذي تضمّنته فاتحة الوحي نزولاً، وما جاء بعد ذلك تباعاً من بيانات وشروح وتأكيدات يسفر كلّ على موقف مفصل وقطعي من قضايا الوجود من حيث طبيعته، ومن حيث عناصره، ومن حيث العلاقات الرابطة بين هذه العناصر، وهو ما نبينه فيما يلي من المسائل:

أولاً — ثنائية الوجود:

تفسّر العقيدة الإسلامية الوجود على أنه ثنائية ذات طرفين: الأول الله جلّ جلاله، والثاني ما سواه من عناصر الكون جميعاً وهو المعبر عنه «بالعالم» في اصطلاح الفكر الإسلامي^(١). إن هذه الثنائية أثبتتها

(١) انظر في شرح هذا الاصطلاح وتعليقه: ابن عاشور - تفسير التحرير والتنوير:

الآية الأولى التي نزلت من القرآن وهي قوله تعالى: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ حيث انحاز الرب الخالق إلى جهة، وانحازت كل المخلوقات الكونية إلى جهة أخرى.

وهذان الطرفان في ثنائية الوجود طرفان متباعدان في الحقيقة الذاتية حيث يتصف الله تعالى بالكمال المطلق، ولا يستطيع العقل البشري أن يعلم من كنه حقيقته شيئاً، وقصارى ما يدرك منه ثبوت صفات الكمال له، في حين يتصف العالم بصفات النقص والدون إزاءه، وهو ذو طبيعة معقولة، في إمكان العقل البشري إدراكها، وتحصيل حقيقتها.

إن هذا التباعد في الحقيقة الذاتية بين الله والعالم تلزم منه بينونة مطلقة بينهما في الوضع، حيث يقتضي الكمال الذي هو صفة الله تعالى التعالي عن التحيز المكاني، سواء كان حلولاً أو مجاورة أو مقابلة أو غيرها من الأوضاع، وتبقى كيفية الوضع بالنسبة لله داخله في مجال غير المعقول من حقيقة الألوهية.

لكن هذه البينونة المطلقة في الوضع ليست مؤدية إلى بينونة في مطلق الصلة بين الله والعالم على نحو ما صوره أرسطو من أن الله دفع العالم إلى الحركة ثم تركه وشأنه دون أن يعلم من أمره شيئاً سوى الكليات من شؤونه^(٦٠)، بل إن الصلة وطيدة بين الله والعالم، فهو الذي خلق كل ما فيه، وهو الذي بقدرته وإرادته ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ (السجدة: ٥)، ويحيط علماً بخفائيه وأسراره ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (يونس: ٦١)، ويرعاه بعنايته ولطفه ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الملك: ١٤).

(٢) انظر: يوسف كرم - تاريخ الفلسفة اليونانية: ٢٣٦ (ط. القاهرة ١٩٣٦).

إن بهذه الصلة المتعددة الوجوه بين الله والعالم يكون الله تعالى على مقربة معنوية من المخلوقات رغم بينونته عنها بينونة مطلقة في الوضع، وهو ما ذكره الله في حق الإنسان في قوله: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (ق: ١٦)، إلا أن هذه المقربة المعنوية آلت في تصور بعض المسلمين إلى مقربة حسية فظنوا ملاسة الذات الإلهية للأشياء العالمية وتداخلها فيها على نحو من القول بوحدة الوجود^(٢) الذي تنتفي فيه المفارقة بين الخالق والمخلوق، وهو مذهب بعض الغلاة من المتصوفة على رأسهم محي الدين بن عربي (ت ٦٣٨هـ).

هذه الثنائية الوجودية الأنفة البيان كما أنها تعتبر منطلقاً لتفسير الوجود في النطاق العليّ إذ أن مبدأ الوجود العالمي كله، وحركته إلى مصيره معلول بالوجود الإلهي الأزلي المتعالي، فإنها تفضي أيضاً إلى تفسير للوجود في النطاق النوعي حيث تسفر عن تقسيم للوجود إلى عالمين متباينين بالطبيعة: عالم الغيب، وعالم الشهادة.

أما عالم الشهادة فهو هذا الوجود المادي الواقع تحت الإدراك الحسي للإنسان، أو الذي يمكن أن يقع تحته. ومن خصائصه أنه معقول الذات، قابل للشهود الإنساني إذا توفرت أسباب الشهود. وأما عالم الغيب فهو عالم ذو طبيعة عقلية معنوية متعالية عن المادة، ولذلك فإنه ليس بعالم معقول الذات قابل للشهود الإنساني، بل يدرك الإنسان ثبوته وآثاره فحسب، كالوجود الإلهي ووجود الملائكة والجن والجنة والنار وغيرها من الموجودات الغيبية، والله تعالى هو وحده الذي يحيط علمه بعالمي الغيب والشهادة جميعاً كما وصف نفسه بذلك في آيات كثيرة: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ (الأنعام: ٧٣).

(٢) انظر تفاصيل هذا المذهب في: عبد القادر محمود - الفلسفة الصوفية في الإسلام: ٤٨٧ وما بعدها.

ثانياً — الوجود الإلهي:

إن التأمل في النفس الإنسانية وما جبلت عليه من الأحاسيس والطباع، وقراءة آفاق الكون وما ركبت عليه من نظام وتناسق ليفضي كله إلى الاعتقاد بالوجود الإلهي.

فالنفس الإنسانية تنطوي على توق فطري إلى كائن عظيم تنسب إليه صفات الكمال، وتنشد عنده الحماية والأمن والطمأنينة، وهذا شعور يجده كل إنسان في نفسه في لحظات الضعف والفرع، وعند مشارف الهلاك، مهما شط به الغرور في أوقات السعة، وزمن الهدوء.

كما أن تاريخ الإنسان ينبتنا أن البشرية منذ خلقها وفي كل منقلباتها: توحشاً وتحضراً، وتنقلاً واستقراراً، ظلت تتدين بتعبّد إله أعظم يحقق الخير والسعادة، ويدفع السوء والشقاوة، وكانت تهتدي إلى الله أحياناً وتضل عنه أحياناً أخرى^(٤).

إن هذه الحقيقة النفسية المتمثلة في نزوع الإنسان المستديم على مرّ الدهر إلى كائن أعلى يتصف بالكمال، والتي يجدها كل عاقل في نفسه في بعض الأحوال من حياته على الأقل لتنبئ بحقيقة موضوعية عليا هي الوجود الإلهي، وليس هذا النزوع النفسي إلا صدى لهذا الوجود الإلهي متفرّع عنه وشاهد على ثبوته كما يشهد الشعور بالعطش بوجود الماء، والشعور بالجوع بوجود المأكّل^(٥).

فإذا ما وقع الانتقال مما تنطوي عليه النفس من نزوع إلى الإله

(٤) انظر في فطرية التدين والشواهد عليها، وما بنى عليها بعض الإسلاميين من قول بأن الله يعلم ضرورة لا استدلالاً: عبد المجيد النجار - العقل والسلوك في البنية الإسلامية: ٩ وما بعدها، ومحمد صالح الزركان - فخر الدين الرازي: ١٨٣-١٨٤.

(٥) هذا هو فحوى الدليل الشهير الذي استدل به ديكارت على وجود الله. انظر: ديكارت - تأملات في الفلسفة الأولى: ١١٣ وما بعدها.

الأعلى إلى آيات الكون وآفاه، ألفينا ذلك الشعور بالوجود الإلهي يجد مصداقاً له في هذه الآفاق: فالكون من أصغر مخلوقاته إلى أعظمها ركب على هيئة من التناسق والنظام العجيبين بحيث قدر لكل منها تركيب ذاتي في بنيتها، ونسبة في وضعها في المجموعة الكونية لا يتغيران عبر الدهر، ولو حصل فيهما تغير طفيف لأدى إلى اضطراب يأتي بالفناء على ظاهرة الحياة بل على ظاهرة الوجود الكوني ذاته. ويكفي في التمثيل لذلك ما يتركب منه الهواء المحيط بالأرض من عناصر لو تغيرت بنيتها الذاتية لآل ما على الأرض إلى الفناء، وكذلك ما حدّد للملايين من الكواكب التي تعمر الفضاء من مسارات ثابتة يؤدي القليل من الانحراف فيها إلى حوادث صدام يهتز لها الكون باضطراب مدمر^(٦).

إن هذا النظام العجيب والتناسق الباهر اللذين بني عليهما الكون فيهما الدلالة العقلية القاطعة على أن هذا البناء ناتج على حكمة وقدرة وعلم يتصف بها خالق أعظم، خلق كل شيء بقدر، ذلك هو الله تعالى الذي أرشد إلى طريق معرفته انطلاقاً من الأنفس والآفاق في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت: ٥٣)^(٧).

هذا الإله الذي تشهد به الفطرة الإنسانية والآيات الكونية يتصف بصفات الكمال المطلق كما تنزع إليه النفوس من الاحتماء بوجود مطلق الكمال، وكما تدلّ عليه آيات الكون من عظمة الصنع ودقته

(٦) انظر في هذا التناسق الكوني: كريسي مورسون: العلم يدعو للإيمان.

(٧) انظر في الاستدلال على الوجود الإلهي بصفة عامة: وحيد الدين خان - الإسلام يتحدى: ٥٣ وما بعدها، ومحمد باقر الصدر - موجز في أصول الدين: ٢٢ وما بعدها، محمد حسن آل ياسين - الله بين الفطرة والدليل: ١٢ وما بعدها. والبوطي - كبرى اليقينيّات الكونية: ٨١ وما بعدها.

وتناسقه. ويتحقق هذا الكمال في المخالفة الكاملة للحوادث التي يجري عليها النقص، ولذلك فالله «ليس كمثله شيء» لا في ذاته ولا في صفاته: ليست ذاته بشبيهة بالذوات المادية، ولا هي خاضعة لما تخضع له من الجسمية والتحيز، بل هي منزهة عن كل ذلك، ولكن العقل لا يستطيع إدراك كنه هذه الذات العلية لأن وسيلة معرفته المقايسة بالأشباه والنظائر والأمثال.

وجماع ما يتصف به الله تعالى من صفات الكمال من إرادة وقدرة وعلم وسمع وبصر وكلام وغيرها صفة تشملها جميعاً هي صفة الوجدانية: فالوجدانية تعني التفرد الإلهي في الذات من حيث انتفاء التعدد والمماثلة، كما تعني التفرد في صفات الكمال جميعاً، ولذلك فإن لهذه الصفة أبعاداً عديدة تشمل كل ما يتعلق بالالوهية، وهو ما يفسر لنا حجم ما ورد من بيان لها في الوحي المحمدي قرآناً وحديثاً حيث حظيت من الشرح والبرهان بما لم تحظ به حقيقة عقائدية أخرى بما في ذلك الوجود الإلهي نفسه، وليس ذلك إلا لمحورية هذه الحقيقة للمنظومة العقائدية الإسلامية من جهة، ولسرعة ما يطرأ من انحراف في تصورهما عند المؤمنين بالوجود الإلهي من جهة أخرى، وهو ما يصدقه الواقع الإنساني قبل نزول الإسلام كما كان أمر اليهود والمسيحيين وعبدة الأصنام من أهل الجاهلية، وبعد نزوله كما أصبح عليه كثير من المسلمين من قصور في تمثيل الأبعاد الحقيقية للوجدانية، حيث انحسر مفهومها إلى وجدانية في الذات، أو انحرفت إلى ضروب من المماثلة للحوادث: تشبيهاً وتجسيماً وحلولاً.

إن الوجدانية الإلهية تتجاوز حقيقة التفرد الإلهي بالذات ومخالفة الحوادث فيها بنية وأوضاعاً إلى التفرد الإلهي بالإنشاء والخلق، والتفرد بالتدبير، والتفرد بالحكم، والتفرد بالعبادة.

فمن أبعاد الوجدانية وجدانية الله تعالى في الإنشاء والخلق فالعالم

ككل يعود في وجوده إلى الله وحده بعد أن كان في طيَّ العدم، وما من موجود يوجد على مرَّ الدهر إلا والله تعالى هو المبدئ له، وليس ما يبدو من تتابع سببي في سلسلة الخلق إلا ناموساً إلهياً ترجع فيه تلك السلسلة إلى الخالق الحقيقي، وهو الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (الرعد: ١٦).

إن تناسق الكون الذي تنخرط فيه عناصره من أعلاها إلى أدناها تركيباً وتناسباً وضعباً لأكبر شاهد على هذه الوحدانية في الخلق، إذ وحدة الأسلوب في كتاب الكون تدلُّ على وحدة المنشئ، وهو مصداق قوله تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ﴾ (المالك: ٣)، وقوله: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (الروم: ٨)^(٨).

والكون بعد خلقه يخضع لله وحده في سيورته بكلِّ ما يحدث فيها من أحداث: استحالة من حال إلى حال بالزيادة والنقصان وتغاير الأوضاع. وليست النواميس الثابتة التي تحكم تلك السيورة وما يقع فيها من ضروب الاستحالة إلا شاهداً على ثبوتها وانسجامها على هذا البعد في الوحدانية ألا وهو الوحدانية في تدبير الكون وتسييره، قال تعالى: ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (مريم: ٩٣)، وقال: ﴿بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُتُونَ﴾ (البقرة: ١١٦).

وهذه الوحدانية في تدبير الكون تنسحب على الإنسان أيضاً، مع انفراده بدائرة منها خاصة به، وهي دائرة التدبير في نطاق التكليف، فلما كان الله تعالى متفرداً بخلق الإنسان فإنه متفرد بكمال العلم بما خلق في طبيعته وقدراته ونوازه وحاجاته، ولذلك فإنه المتفرد بأن

(٨) اتخذ من هذا التناسق الكوني دليل على وحدانية الخالق. انظر: الماتريدي-

يضع له منهاج الحياة على الوجه الذي يكون فيه خيره وسعادته وترقيه في شتى مناحي حياته الفردية والاجتماعية. وبذلك يكون من الأبعاد الأساسية للوحدانية وحدانية الحكم في حق الإنسان، علي معنى أن يكون الميزان الأوحد فيما يأتي الإنسان ويذر فكراً وسلوكاً هو ميزان البيان الإلهي، ائتماراً بما أمر الله وانتهاءً عما نهى عنه، وكل ولاية على حياة الإنسان لا تكون قائمة على هذا المعنى فإنما هي ولاية تناقض حقيقة الوحدانية الإلهية، وتؤول إلى ضرب من الإشراك بالله في الحكم: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥).

هذه الوحدانية في الحكم تقتضي الوحدانية في المعبود، فلما كان الله تعالى هو وحده الذي يشرف على ما يجري به الكون، ويضع ما تجري عليه حياة الإنسان، فإن الكون والإنسان جميعاً يسلمان القياد ويتجهان بالخضوع والطاعة له وحده، قسراً بالنسبة للكون، واختياراً بالنسبة للإنسان. وكل طاعة لولي، وكل انقياد لحاكم إنما هي طاعة وانقياد لما ينفذان من الأحكام الإلهية، وإلا انقلبت إلى إشراك ينقض بعداً أساسياً من أبعاد الوحدانية الإلهية^(٩).

يتبين مما تقدم أن الوجود الإلهي لا يمثل الحلقة العليا المترتبة في سلسلة الوجود^(١٠)، بل هو وجود مفارق لهذه السلسلة مفارقة مطلقة

(٩) انظر فيما يتعلق بالوحدانية وأبعادها: السيد علي خامنئي: روح التوحيد. وإسماعيل الفاروقي: جوهر الحضارة الإسلامية: ٥٨٥.

(١٠) وهو ما قامت عليه فكرة فلسفية أخذ بها بعض الفلاسفة الإسلاميين مثل الفارابي وابن سينا تأثراً بالفلسفة الأفلوطينية القائلة بترتب الوجود في سلسلة من العقول فما دونها من عالم الكون والفساد. وأعلى موجود في تلك السلسلة المترتبة هو العقل الأول (الله). انظر: عبده الشمالي - دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية: ٢٧٧، ٣٦٤.

يدرك العقل الإنساني ثبوتها، ولكنه لا يدرك ما تثبت به من كنه حقيقة ذلك الوجود. كما أن هذا الوجود هو المبدأ لكل الوجود حيث يتراجع إليه كل شيء في الكينونة، وفي الحركة، وفي المصير: خلقاً وتدبيراً وسيطرة وحكماً.

ثالثاً - الوجود العالمي:

الوجود العالمي هو المقابل للوجود الإلهي، ويطلق على كل ما سوى الله من الموجودات ما كان ذا طبيعة مادية وما لم يكن كذلك، وهو يمتد إلى ما وراء علم الإنسان، بل إن ما يعلمه منه ليس إلا القطرة من البحر، وهو ما تثبتته يوماً بعد يوم الكشوفات العلمية في اتجاه ما هو أعظم في عالم الأفلاك، وما هو أصغر في عالم الذرات ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ (النحل: ٨).

إن أول صفة من صفات العالم في العقيدة الإسلامية هي صفة القصور الذاتي عن التكوين، على معنى أن هذا العالم في جملة وفي تفاصيل عناصره يتصف بالعطلة عن الخلق والإنشاء ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ (الحج: ٧٣)، ولذلك فإن وجوده ليس ذاتياً حتى يتصف بالأزلية والقدم^(١)، بل لقد طرأ عليه الخلق والتكوين من جهة خارجة عنه وهي جهة الله تعالى.

لقد خلق الله العالم من العدم ومن غير مادة سابقة كما جا في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان: ٢)، وقوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ (الحديد: ٣)، وهو ما يفيد شمول الخلق

(١) انظر في بيان قصور العالم عن التكوين واحتياجه إلى الخالق: محمد باقر الصدر - فلسفتنا: ٣٣٢ وما بعدها (ط. ١٠ دار التعارف للمطبوعات، بيروت ١٩٨٠)، وحيد الدين خان - الإسلام يتحدى: ٥٣ وما بعدها، ومحمد حسن آل ياسين - المادة بين الأزلية والحدوث.

الإلهي لكل العناصر العالمية سواء كانت مادة أولى أو أشياء ناشئة منها، كما يفيد قصر الأزلية على الوجود الإلهي .

وقد ينشأ الوهم بأن المادة التي خلق منها العالم تتصف بالأزنية من ظاهر قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ (هود: ٧) وقوله: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (فصلت: ١١) وقوله ﷺ لما سأله أهل اليمن عن بداية العالم المشاهد: «كان الله ولم يكن شيء قبله أو معه أو غيره وكان عرشه على الماء»^(١٢)، وربما سبب هذا الوهم الظن بأن الآيتين والحديث وردت في سياق البيان لأصل العالم مطلقاً، والحال أنها وردت في بيان أصل الوضع العالمي الحالي كما جاء في سؤال أهل اليمن قائلين: «جئناك لتتفقه في الدين، ونسألك عن أول هذا الأمر»، ومن البين أن العالم المشاهد ليس إلا وضعاً من أوضاع الوجود العالمي ذي التاريخ الموعول في القدم المتعدد في الأطوار^(١٣).

إن كيفية الخلق التي تمّ بها تكوين العالم لم تكن مناط بيان العقيدة الإسلامية كما هو الموقف دائماً عندما يتعلّق الأمر بالكيفيات، إلا أن البيانات القرآنية تتسع لفهم أن يكون الوجود العالمي تقلّب بعد لحظة التكوين بالتدبير الإلهي في أطوار متعاقبة حتى انتهى إلى الطور المشاهد منه الآن، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ (الأنبياء: ٣٠)،

(١٢) أخرجه البخاري في صحيحه ١٢٨/٤-١٢٩ كتاب بدء الخلق 6 باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ وأخرجه أيضاً في ١٥٢/٩ كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء .

(١٣) انظر: أبو الوفا الغنيمي التفتازاني - الإنسان والكون في الإسلام: ٤٣ وما بعدها، وانظر شرح العقيدة الطحاوية لمؤلف مجهول: ٦٦.

وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت: ١١)، وقوله: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فاطر: ١) (١٤).

لقد تعلقت الإرادة الإلهية بخلق العالم، وفي خلقه حكمة ثابتة يقتضيها ثبوت الكمال الإلهي الذي يناقض كل ضروب العبثية كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ (الأنبياء: ١٦)، وقد تكون هذه الحكمة التهيئة للمخلوق الأكرم الذي سيحمل أمانة الخلافة وهو الإنسان الذي يحتل القمة في سلم المخلوقات، وذلك لكي يقوم بالعبادة التي من أجلها خلق ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥١)، فتكون إذن الحكمة من خلق العالم تحقق العبادة لله تعالى (١٥).

إن العالم المخلوق لما كان يدين بخلقته وتدبيره للإله الواحد فإنه في طبيعته وسيرورته يتصف بالوحدة والانتظام والغائية.

فهو يتصف بالوحدة في أصل التركيب إذ الموجودات الكونية في معرض كثرتها وتغايرها ترجع إلى ذات العناصر في تركيبها على نحو ما يبدو من وحدة تركيبية بين الإنسان والتراب ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ﴾ (الحج: ٥) على رغم يبدو بينهما من تغاير في الظاهر، وكذلك الأمر بالنسبة لسائر الكائنات. كما أن المخلوقات كلها موحدة فيما ركبت عليه من تزاوج في تكوينها كما

(١٤) انظر المرجع السابق، وانظر: عبد العليم عبد الرحمن خضر - الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن: ٥٧.

(١٥) اختلفت الأنظار في الجواب على سؤال: لم خلق الله الخلق؟ فذهب البعض إلى إبطال السؤال، وأجاب آخرون بأجوبة مختلفة أقربها إلى المنطق القرآني الجواب الذي أوردناه. انظر: أبو منصور الماتريدي - كتاب التوحيد: ٩٦ وما بعدها.

يفيده قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾
(الذاريات: ٤٩).

وهو يتصف بالوحدة في التكامل الوجودي، إذ يتوقف فيه وجود
وبقاء عناصره بعضها على بعض، كما أن فناء بعض العناصر يؤدي
إلى اضطراب مهول قد يأتي بالهلاك على الكل أو على الجمل ﴿وَجَعَلْنَا
مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ (الأنبياء: ٣٠).

كما أنه يتصف بالوحدة في الحركة، إذ العالم كله خاضع لحركة
وتغاير مستديمين: فالجبال على ما تبدو عليه من سكون وثبات ليست
إلا في حركة دائبة ﴿تَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرًّا
السَّحَابِ﴾ (النمل: ٨٨)، وكذلك الأمر بالنسبة للمجموعة الكونية
كلها: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ
وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: ٤٠).

ومن صفات العالم الانتظام، فالحوادث الكونية مرتبطة بعضها
ببعض بانتظام واطراد على حسب قوانين وسنن ثابتة لا يأتي عليها
الاضطراب والانحرام، سواء نظرنا في ذلك إلى الكون في مستوى
الأفلاك ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ
وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: ٤٠)، أو نظرنا إليه في مستوى
الموجودات الحية في نموها وانقلاب أطوارها بين النشأة والفناء، فالله
ينعم بالماء ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فِتْرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ
يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ (الزمر: ٢١)، وقد بين الله تعالى هذا الانتظام في
العالم بصفة عامة في قوله: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ
اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (فاطر: ٤٣)^(١٦).

(١٦) انظر: محمد المبارك - نظام الإسلام (العقيدة والعبادة): ٤١ وما بعدها،
وعبد المجيد النجار - العقل والسلوك في البنية الإسلامية: ٧٤، ٣٩.

ومما يتصف به العالم أيضاً الغائية، وتمثل هذه الغائية فيما تبدو عليه الموجودات الكونية من تناسق وظيفي عجيب يقوم فيه كل عنصر بدور محدد يكمل أدوار العناصر الأخرى فيما يشبه الآلة الكبيرة التي تقوم كل قطعة فيها بحركة مكتملة لحركات القطع الأخرى لتفصي أخيراً إلى غاية واحدة هي العمل الذي تؤديه تلك القطعة. إننا ندرك من هذا التناسق الوظيفي للعالم أنه يسعى نحو غاية محددة ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ (الأنبياء: ١٦)، وأنه تتفي منه العبيية والحيرة، إلا أننا قد لا ندرك حقيقة هذه الغاية التي يتحرك إليها العالم ككل وإن كنا ندرك الغايات الجزئية التي تتحرك إليها الموجودات في نطاق تفاعلها وتكاملها الوجودي^(١٧).

رابعاً — الوجود الإنساني:

الإنسان كائن ينتمي إلى الوجود العالمي، إلا أنه كائن متميز عن سائر الكائنات الأخرى وذلك سواء من حيث خلقه وتكوينه، أو من حيث منزلته في الكون، أو من حيث مهمته الوجودية، ولذلك فإنه حري بأن يخص من بين الموجودات الكونية ببيان عقائدي في نطاق المنظومة الوجودية كما شرحتها العقيدة الإسلامية.

١ — خلق الإنسان: لقد كان للإنسان وجود في العلم الإلهي قبل أن يصبح له وجود عيني، ووجوده في علم الله كان يتضمن تفاصيل كيانه، كما كان يتضمن المهمة التي سيعهد إليه القيام بها في الكون، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)، ولهذا الاعتبار فإن الإنسان سبقت ماهيته في العلم الإلهي وجوده العيني في الكون، فليس ذلك الوجود العيني إلا تحقيقاً

(١٧) انظر: السيد علي حسيني خامني - روح التوحيد: ١١.

لتلك الماهية فيما كَوَّن الله من طبيعة، وفيما ينبغي أن ينجز الإنسان من مهمة الخلافة^(١٨).

أما الوجود العيني للإنسان فقد كانت نقطة البداية فيه خلق آدم أبي البشر جميعاً. وإذا كان الكون في عمومه وبسائر مخلوقاته ربما مرّ بأطوار متعاقبة حتى آل إلى الصورة التي عرفها منه الإنسان، فإن الخبر القرآني الذي وصف خلق الإنسان الأول آدم عليه السلام يفهم منه أن هذا الإنسان خلق متكامل الصورة على سبيل الطفرة الفجائية لا على سبيل الانقلاب التطوري الذي انحدر فيه من سلالات حيوانية دنيا حتى وصل إلى صورته الراهنة، وهو ما تفيدته آيات قرآنية عدة، مثل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: ٤)، ومثل مجموع الآيات التي وصفت مشهد الإعلام الإلهي بخلق آدم وردود أفعال الملائكة والجن على هذا المخلوق الجديد، فقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ (البقرة: ٣٠)، وقال: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (ص: ٧١—٧٤).

وقال: ﴿إِنْ مَثَلٌ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٥٩). ففي هذه الآيات سُمِّي الإنسان في معرض الإخبار عن خلقه باسمه الوظيفي (الخليفة) وهو ما يقتضي الاكتمال. وفيها التعبير بالتسوية والنفخ في مقام التلاحق الزمني الذي يضمه نفس المشهد ابتداء بإخبار الملائكة بالخلق، وانتهاء بسجودهم

(١٨) وهذا خلافاً للفلسفات التي تقول بسابقية وجود الإنسان على ماهيته، وهو ما يجعله في حلٍّ من كل مهمة مسبقة، كما يجعله سيد نفسه في سلوك الطريق الذي يراه بعقله. والوجودية من أبرز الفلسفات التي تنظر لهذا المعنى.

لآدم وعصيان إبليس. وفيها مقارنة خلق آدم بخلق عيسى الذي يحمل عنصر الفجائية، ويعلو على الانقلاب السبي في الأطوار المعهودة، فكذلك الأمر بالنسبة لخلق آدم كما يفيد التعبير «بكن فيكون» بما يحمله من معنى الاكتمال والفجائية في الخلق. وكل هذه الشواهد تدلّ على أن الإنسان في العقيدة الإسلامية خلق مكتمل الصورة مؤهلاً للتكليف^(١٩).

إن أفعال الله لا تخلو من الحكمة، فهل من سبيل لإدراك الحكمة الإلهية من خلق الإنسان؟ يمكن أن تستوحى هذه الحكمة من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥١)، فهذه الآية تفيد أن الحكمة من خلق الإنسان هي عبادة الله، بمعنى أن يتحقق في الكون مظهر من الخضوع لله والتسليم له صادر عن إرادة حرّة، بعد أن تحقق الخضوع والتسليم في كافة المخلوقات بصفة قسرية. وقد تكون الحكمة من خلق الإنسان التفضّل عليه بالنعمة والسعادة سواء في حياته الدنيا أو في الحياة الآخرة^(٢٠)، وذلك لما رُكّب عليه من ملكات إدراكية كانت مناسطاً للتكليف الذي يمكن من الترقّي والتكامل ونوال النعمة من استثمار الكون، كما يمكن من نوال الثواب في الآخرة. وربما يكون الموقف العقائدي الأسلم الإيمان بأن

(١٩) انظر في مناقشة التطورية: محمد حسن آل ياسين - الإنسان بين الخلق والتطور، ومنيرة علي الغاياتي - مذهب النشوء والارتقاء في مواجهة الدين، وعلي أحمد الشحات - نظرية التطور بين العلم والدين، ويحيى هاشم فرغل - نقد نظرية التطور الحيوي عند دارون وأتباعه. وموريس بوكاي - ما أصل الإنسان (ترجمة ونشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض ١٩٨٥).

(٢٠) انظر في هذه المعاني: الماتريدي - كتاب التوحيد: ٩٦ وما بعدها، والقاضي عبد الجبار - المغني: ٩٢/١١. وعبد الرزاق نوفل - الرحمن الرحيم: ٣١ وما بعدها.

الإِنسان خلق لحكمة إلهية، وأن جماع هذه الحكمة العبودية لله عبودية يتأسس عليها تفضل إلهي بالنعمة. وأما ما وراء ذلك من تفصيل فقد لا يكون وراءه طائل.

٢ — الإِنسان والكون: الإِنسان عنصر كوني على مستوى الخلق، وعلى مستوى الحركة لممارسة الحياة، فالكون هو منبته وهو مجال حياته، ولذلك فإن التعاليم الإسلامية بينت صلة الإِنسان بالكون ومنزلته فيه أوضح بيان، وتتلخص هذه الصلة وهذه المنزلة في نقاط ثلاث أساسية: وحدة الإِنسان والكون، ورفعة الإِنسان، وتسخير الكون للإِنسان.

أ — وحدة الإِنسان والكون: إن انخياز الإِنسان والكون معاً إلى الطرف الثاني من طرفي الثنائية الوجودية في مقابل الطرف الأول (الله تعالى) أصل الوجود ومدبر شؤونه جعله مشمولاً مع الكون بجملته من مظاهر الوحدة بينها القرآن الكريم في مواطن متعددة.

ومن تلك المظاهر للوحدة بينهما وحدة المآتى والمصير: فكل منهما ناشئ من العدم بالإرادة الإلهية، إذ الله ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان/2) وكذلك كل منهما يتحرك إلى نهاية محتومة وهي الرجوع إلى الله والمصير إليه ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (المائدة: ١٨).

وفيما بين هذا المبدأ وهذا المصير يشترك الإِنسان والكون في عناصر التكوين، فليس الإِنسان على ما يبدو من مفارقتة للجمادات إلا ناشئاً مثلها من تراب ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ﴾ (الحج: ٥)، وهو يشترك مع كافة الدواب في عنصر الماء كمادة للخلق، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَمْشِي عَلَى

أَرْبَع ﴿ (النور: ٤٥). كما أن الإنسان يشترك مع سائر الكون في الخضوع لقانون التغير والحركة، وهو ما كان ملحظاً لإبراهيم الخليل في استدلاله على الوجود الإلهي بهذا التغير الذي يأتي على الإنسان وعلى موجودات الكون جميعاً كما جاء في القرآن الكريم: ﴿الْم تَر إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ (البقرة: ٢٥٨)^(٢١).

ب - رفعة الإنسان: إن مظاهر الوحدة بين الإنسان والكون لا تنطوي على دلالة معيارية تؤدي إلى التساوي في القيم بينهما، بل هي مجرد دالة على الاشتراك في جزء من الحقيقة يبقى معها مجال كبير لتمايز الإنسان عن الكون تمايز رفعة واستعلاء.

فالقرآن الكريم عند ذكره للإنسان في معرض الموجودات يخصه دوماً بالتميز والرفعة، ويضعه في المكانة الجلّى من سلم التفاضل القيمي للمخلوقات، وهو ما جاء واضحاً أشدّ الوضوح في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (الإسراء: ٧٠).

وهذا التفضيل للإنسان، والإعلاء لشأنه بين سائر المخلوقات أظهرته قصة خلق آدم وما وقع فيها من أحداث، فقد بينت هذه القصة أن الكائن الجديد أدى مقدّمه إلى تغير جذري في النسب بين الموجودات، حيث أصبح القطب الوجودي الذي ترنو إليه المخلوقات

(٢١) انظر في وحدة الإنسان والكون: عبد المجيد النجار - العقل والسلوك في البنية الإسلامية: ٧٣ وما بعدها. أبو الوفا الغنيمي التفتازاني - الإنسان والكون: ٦٥ وما بعدها. محمد المبارك - نظام الإسلام: العقيدة والعبادة - ٥٣.

جميعاً، وتحدّد قيمتها بقدر ما تقترب منه أو تبتعد عنه، وما جاء من سجود الملائكة لأدم وقد كانوا أشرف المخلوقات^(٢٢) ونيلهم بذلك الرضى الإلهي، ومن امتناع إبليس من السجود ونيله بذلك اللعنة والخسران، إنما هو رمز لتحول في قطبية المخلوقات لتكون في صالح هذا القادم الجديد.

والى جانب هذه القطبية الوجودية التي خصّ بها الإنسان، فإنه خص أيضاً بقطبية في تكوينه الذاتي حيث استجمع في هذا التكوين العناصر التي تتأسس منها سائر المخلوقات الكونية كما لم يستجمعه أي كائن آخر، وهي العناصر التي ترجع إلى عنصرين رئيسيين: عنصر ترايبي مادي، وعنصر روحي عقلي، وقد لخص ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر: ٢٨، ٢٩). وتعبيراً عن هذه القطبية التكوينية للإنسان وصف بأنه العالم الصغير، وأنه صفة العالم ولبابه وخلاصته^(٢٣).

وقد خص الإنسان أيضاً بقطبية للكون على المستوى المعرفي، وهي المتمثلة في قدرته على الاستيعاب المعرفي للكائنات، إذ هو مهياً بوسائله الإدراكية لأن ينقل العالم الخارجي في مواصفاته الكمية إلى عالمه الداخلي على سبيل التصور، فيصبح هذا الكائن الصغير حاملاً في ذاته لذلك العالم الكبير، فتحصل له بذلك القيومية والإشراف على سائر الكائنات، وهو ضرب من الرفعة والاستعلاء أكدهما قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى

(٢٢) انظر آراء مختلفة في أفضلية الإنسان على الملائكة أو أفضليتها عليه في: الرازي - التفسير الكبير: ١/٢٣٤، ٢١٥ (ط. طهران).

(٢٣) انظر: الراغب الأصفهاني - تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين: ٢٠-٢١.

الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴿البقرة: ٣١﴾.

ج — تسخير الكون للإنسان: إن حقيقة رفعة الإنسان وعلو شأنه أدت إلى حقيقة عقائدية أخرى هي تسخير الكون للإنسان، فالله تعالى هياً العالم بحيث يكون صالحاً لاستقبال الإنسان، وسخر موجوداته لخدمته تسخيراً، فحدّد الأبعاد والقوانين والأحجام بما يتلاءم والمهمة الأساسية لخلافة الإنسان في الأرض، وما يستجيب لقدرته على التعامل العمراني مع الطبيعة تعاملًا إيجابياً فعلاً، وهو ما يجمعه قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجنّة: ١٣) (٢٤).

ويبدو ذلك التسخير الكوني للإنسان فيما ركّب عليه الكون من قوانين كمية وكيفية تحكّم عناصره، تناسب تماماً الكيان الإنساني في وجوده ابتداءً، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (إبراهيم: ٣٣). كما يبدو فيما يُسرّ في الكون من أسباب لحفظ حياة الإنسان وتواصلها وإثمارها: خصوبة لتوفير الغذاء ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ (النحل: ١١)، ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (النحل: ٥)، وانبساطاً لإمكان التنقل وجوب البرّ والبحر ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ (الجنّة: ١٢)، ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بَسَاطَةً لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجاً﴾ (نوح: ١٩-٢٠)، وقبل كل ذلك ثباتاً في قانون التركيب والحركة ليستطيع العقل رصد تلك القوانين واستيعابها واستثمار الكون بها.

(٢٤) انظر: عماد الدين خليل — حول تشكيل العقل المسلم: ٩٢ وما بعدها.

إن هذا النسق العقائدي في صلة الإنسان بالكون: وحدة ورفعةً وتسخييراً ينطوي على عناية إلهية بالإنسان تتمثل في إعداده ليتعامل مع الكون بما يحقق وظيفة الخلافة التي خلق من أجلها. فوحدة الإنسان والكون من شأن الإيمان بها أن ينشئ في النفس الشعور بالقرابة من الكون والوفاق معه، ويدفع مشاعر الخوف منه والعداء له، وهو المناخ الضروري لانطلاق القدرات الإنسانية وإقبالها على الكون لتبشره بالفعل والاستثمار، وليس من معطل لتلك القدرات ومثبط لها مثل التوتر والخوف والعداء المؤدية إلى الانهزام أو إلى الصراع المضي للقدرات. والإيمان بالرفعة وعلو الشأن يؤسس في النفس النزوع إلى الفعل والاستغلال، وهو ما يدفع بقوى الإنسان إلى منطقة الفعالية والتأثير، ويمنع من أي ضرب من ضروب الشعور بالصغار إزاء الطبيعة نتيجة لاستشعار عظمتها وجبروتها، فتتخذ منها الآلهة التي تُستفد طاقات الإنسان في عبادتها وتقديم القرابين لها، فتضيق بذلك خلافة الإنسان في الأرض. والإيمان بتسخير الكون للإنسان يدفع به إلى اقتحام الكون فعلاً لاستثمار مرافقه، إذ يؤمن بأنه منفتح له مهياً للعطاء، فيمتلىء ثقة واطمئناناً بإيجابية المردود، ويتنفي من نفسه كل شعور باليأس والاستصعاب، وهو ما وصفه الله تعالى في قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ * وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلُكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُونَ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿﴾ (الزخرف: ١٠-١٣) (٢٥).

(٢٥) انظر في هذه المعاني بحثاً لنا بعنوان «الإنسان والكون في التربية القرآنية»: ١١ وما بعدها (مجلة الكلية الزيتونية - العدد ٨، سنة ١٩٨٥).